مجلة المرائد

العدد : ١٨٣ الموافق في جمادى الأولى ١٤١٧ هجري ١٠ / ١٩٩٦ ميلادي

قراءة في صحيح البخاري : إنــك امــرؤ فــيــك جــاهــلــيــة	بقلم : نور الدين بن علي

جاء الإسلام إلى العالم وكان لكل مجتمع في أرجائه نظامه الخاص ديناً وأعرافاً وعادات ، وكان على الإسلام القيام بمهمة التغيير والانتقال بهذه المجتمعات إلى ما هو حق في أمر دينها ، وإلى ما هو عدل في معاملاتها ، وإلى ما هو خير في سلوكياتها وعاداتها.

ولقد كان المجتمع العربي ، أحد هذه المجتمعات ، يعيش باطل شركه ، وظلم صلفه وكبريائه ، وقبح تمايزه وطبقاته. ونزل القرآن الكريم بياناً شافياً ، يستعرض تاريخ الأمم ويعرض مجريات الأحداث ، ويوضح حقائق الأمور. وقام المصطفى ﷺ يبين التنزيل بلسان الحكمة ، ويهدي إلى السبيل الأقوم بالموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن ؛ فحدد مفاهيم الحياة وأقام معالم الحق ، ودلَّ على سبيل النجاة ، ووضع أمام الناس جميعاً ضوابط الشريعة ، ثم سلط الضوء على كل حركة وتصرف بشري ؛ فبين من خلال توجيهاته صحيحه من فاسده ، وحقيقه من باطله ، وخيره من شره ، وأقام الربُّ سبحانه من أفعال المصطفى ﷺ وأحواله النماذج الأمثل لواقع الحياة ، أمام أعين الناس الذين ما فاتهم أمر من أموره إلا وأطلعهم عليه ، حقائقُ تشاهد من أحواله ، وأخبار تنقل كل شاردة وواردة من أخباره ، ومن خلال ذلك كله تكونت النظرة الجديدة إلى الحياة... نظرة تميز ما بين ما هو إسلام وبين ما هو جاهلية... وبدأ هذان المصطلحان ينطلقان في ميادين التخاطب البشري تثبيتاً للمبادئ وتمييزاً للحقائق.

ولقد ظن البعض في زماننا أن مصطلح « الجاهلية » مصطلح حديث لم يتداوله الناس من قبل ، ولكن قارئ القرآن والمتبع لحديث رسول الله ﷺ لا يخفى عليه أن هذه الكلمة قد ركز عليها ديننا واستخدمها قرآننا ونبينا الاستخدام المنضبط... وكان إطلاقها من خلال الكتاب والسنة يتسم بالمنهجية الدقيقة والمعايير المنضبطة التي لا يلاحظها الكثيرون... فالجاهلية قسيم الإسلام كما أن الظلمات هي في مقابل النور... فإذا علمنا أن الإسلام يتكون من العقيدة الصحيحة ، والشريعة الربانية ، والسلوك الإيماني ، والتاريخ الحق ، فعلينا أن نعلم بأن الجاهلية بالمقابل تتكون من العقائد الباطلة ، والنظم الأرضية ، والعادات الذميمة ، والأساطير.

وعلى هذا لا يمكننا أن نجعل مفهوم الجاهلية بعمومه هو بمقابل الكفر بعمومه هكذا بدون تفضيل ، بل علينا أن ندرك أن ما يكون في مقابل عقيدتنا الإسلامية هو جاهلية الكفر والشرك بالله ، وما

يكون في مقابل نظامنا التشريعيي الرباني هو جاهلية القوانين والأنظمة الوضعية ، وما يكون في مقابل سلوكياتنا وأخلاقنا السديدة هو جاهلية الانحراف والعادات المخالفة للإسلام ، وما يكون في مقابل القصص القرآني والتاريخ الإنساني في القرآن هو جاهلية الأساطير والأوهام... بل يمكننا أن ندخل في التفصيل الأدق ؛ فإذا كانت شعب الإيمان بضع وسبعون شعبة ، فإن في مقابل كل شعبة أمراً جاهلياً يمكن تَوضحُهُ وتَبينُ معالمه بالمقارنة الدقيقة مع ما يقابله من الشعب الإيمانية في الإسلام... ولذا نجد أن البخاري قد جاء بهذا العنوان العلمي الدقيق : « **باب المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها** » وساق الحديث الآتي :

« عن المعرور قال : لقيت أبا ذر بالرِّبذة وعليه حلة وعلى غلامه حلة ، فسألته عن ذلك ؟ فقال : إني سابيت رجلاً فعيرته بأمه ، فقال لي النبي ﷺ : أعيرته بأمه ؟! إنك امرؤ فيك جاهلية !. إخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده ، فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم ».

لقد أطلق عليها تسمية المعاصي واعتبرها من أمر الجاهلية... ولقد خاطب رسول الله ﷺ في هذا الحديث الذي ساقه البخاري واستمد من هذا العنوان الأصولي الفقهي ، خاطب أبا ذر بقوله « إنك امرؤ فيك جاهلية » وأبو ذر ! وما أدراك ما أبو ذر رضي الله عنه ؟... ولكنه الإسلام يسلط الضوء على كل تصرف ويراقب كل قول... فما كان من منبع الإسلام أعلى شأنه ، وما ترشح من أعماق الماضي مما قد تبقى آثاره رفض ظهوره والتعامل على أساسه... فلا إيثار لأبيض على أسود ، ولا ولاء لقبيلة على حساب الولاء للإسلام ، ولا تأثير لمال أو جاه على حساب أخلاقيات الإيمان.

ومن المؤسف أن ترشحات الجاهلية بدأت تظهر ، وخاصة عندما بدأت الشخصية الإسلامية تتعرى عن صبغة الإسلام شيئاً فشيئاً... فبدأنا نسمع بأن هذا سوري وذاك مصري... وهذا عربي وذاك أعجمي لتبدأ العلاقات بالتجمع على أساس قبلي أكثر من أن تترابط على أساس الإسلام.

لقد بدأت الجاهلية تطل برأسها في ميادين العقيدة بدعاً وشركيات... وفي ميادين السلوك تعصباً وتعدد ولاءات ، وفي ميادين الخبر أوهاماً وأساطير... ومما يؤسف أن المراقبة لكل ذلك قد ضعفت ، وتعطلت المبادرة إلى المحاسبة بين الإخوة والجماعات ، تحت ضغط المجاملات والخوف والحذر من خسارة الأفراد والأصدقاء ، فتجمعت لدينا شخوص بينما تفرقت بيننا القلوب... ومما يصاب به الفكر الإسلامي أحياناً هو خلطه بين مفاهيم الجاهلية وحمل بعضها على بعض بدون دقة أو ضبط ، فإذا

بجاهلية الكفر تطلق بآثارها على جاهلية السلوك وإذا بجاهلية السلوك تصور من خلال الخطاب أو الكلمة على أنها جاهلية شرك والأخطر من ذلك أن تنتقل القضية من الفكر إلى الممارسة ، ويكون التعامل على هذا المنحى من الخلط بين المفاهيم ، فتقع مشكلات تتحول مع الزمن إلى ويلات ، ويتكون في نهاية المطاف أضخم العوائق في طريق الدعوة وأشدها حرجاً. ولعل أهم المؤثرات في ذلك هو تعميم مصطلح جاهلية الكفر على كل تصرف بشري وسلوكي ، وذلك بسبب تركيز - في بداية الأمر - على جاهلية النظام بمفهومه السياسي كدولة وحكم ، مما انسحب في نهاية الأمر - عند تفلت التعبير من ضوابطه - على كل نظام سلوكي واجتماعي ، فشاعت الكلمة على ألسنة الناس ، على غير ما قصد منها في بداية الأمر ، ولقد يكون السامع أوعى من المبلغ وقد لا يكون.

كذلك قد يساهم في استفحال المشكلة دقة التفريق العلمي في الكلام على مرتكب المعصية وهو جاحد لها ، حيث يكون كفره في جحوده ، ومرتكب المعصية - وهو لا ينكر حكمها - فيكون عاصياً بذنبه مؤمناً بإقراره ، فبعض الناس يركزون على الجانب الاعتقادي أكثر من تركيزهم على الجانب العلمي ، ويقع الإشكال عند عدم توضيح المقال.

ولعله لا يفوتنا أيضاً أن نذكر أن الاختلاف في مسألة تعريف الإيمان... هل هو قول ؟ أم قول وعمل ؟ قد لا يكون مدخلاً لإثارة ما ذكرناه من إشكال... فالمبالغة في شرح الأحاديث التي تبين بأنه « والله لا يؤمن من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم » وأمثالها ، والتركيز على نفي الإيمان إلى درجة أن يتحول إلى كفر من خلال سوء تصرف أو اقتراف ذنب ، هو ما يسبب مثل تلك المواقف المتشنجة.

وإن هذا لا يعني أن نقلل من أهمية العمل الذي هو من الإيمان إلى درجة التساهل التي وصل إليه الكثير من الناس ، بل علينا مع تأكيدنا على ضرورة العمل أن نذكر أن التقصير في بعض أجزائه لا يخرج الإنسان من الإيمان... بل نحاسب هؤلاء كمسلمين يرجون رحمة الله في دخول جنته ، ونحذر - في الوقت نفسه - بأن هناك من الأعمال والأقوال ما يخرج صاحبه نهائياً من الإيمان ويجعله من المرتدين... لذا جاء عن الزهري أن من قال « والله إن اليهود أحسن من المسلمين » فقد ارتد عن الإسلام ؛ لأن الكلمة العامة تشمل العقيدة والسلوك والتشريع.

وأخيراً فإن هذا الحديث « إنك امرؤ فيك جاهلية » يدفعنا للتأمل في مدلولات ألفاظه وإرشادات توجيهاته... لتدقيق النظر وضبط المعايير وتحديد المفاهيم والتعامل على أساس من الدقة في الطرح والتصرف.